**المحور الأول: القرن التاسع عشر الخصائص والقضايا**

**المحاضرة الأولى: خصائص القرن التاسع عشر**

تقديم:

تكمن دراسة مادة أوروبا خلال القرن التاسع عشر والعشرون في كونها مرحلة مفصلية في التاريخ الحديث ليس فقط على المستوى الأوربي، بل على مستوى محيطها الاقليمي والدولي، خاصة أن تأثيراتها وصلت إلى مناطق واسعة من المعمور بما فيها المنطقة العربية- الاسلامية.

لذلك نرى، من الزاوية المنهجية، أنه من الصعب فهم العديد من وقائع وأحداث بلاد المغرب خلال الفترة ذاتها دون ربطها بسياقها الاوربي الذي أسهم إلى حد بعيد في صياغتها.

من هذا المنطلق عمدنا إلى تناول بعض القضايا الاكثر جاذبية في التاريخ الاوربي والاكثر تأثيرا في جوارها المتوسطي بما فيه العربي.

فضلا عن أن مشروعية تدريس هذه المادة لطلبة الفصل الرابع تنخرط في سياق ربط طلبة الجامعة بكبريات الاحداث العالمية بغية استيعاب أصول وخلفيات الظواهر التاريخية التي عرفها المجتمع المغربي وغيره من قبيل الامبريالية، الحماية، الافكار والتنظيمات النقابية والسياسية....

غير أن مشكل التحقيب يظل من القضايا التي تمارس نوعا من التشويش كلما هم الدارس أو الباحث بمعالجة مختلف القضايا التاريخية على اختلاف مراحلها. وهو الأمر الذي ينسحب أيضا على القرن التاسع عشر بما يطرحه من إشكال مرتبط بالتمفصلات التاريخية والتقاطعات والامتدادات.

لذا نجد أن البعض يؤطر هذا القرن ما بين سنة 1800، و سنة 1900، وعند البعض من سنة 1815 إلى 1914.

لكن المؤكد أن هذا القرن الاستثنائي هو جزء لا يتجزأ من التاريخ الحديث للبشرية، وإن جرى التقليد، عند الكثيرين أيضا، على جعل سنة 1789م بداية القرن التاسع عشر إلى حدود الحرب العالمية الاولى .ومرد هذا الاجراء التحقيبي الأخير هو كون التاريخ الاوربي لهذه الظرفية يعد، بحق، سلسلة مترابطة من الاحداث اتسمت على مدار 125 سنة بالتشابك والتفاعل في صياغة مظاهر القرن التاسع عشر.

كما أنه قرن مفعم بالأحداث الزاخرة من انتصارات واخفاقات في مختلف الأصعدة والمجالات، سواء على مستوى الداخل الاوربي ( الثورة الفرنسية على سبيل المثال) أو في الارتباطات القوية والتأثيرات الجدلية لهذا المجال بباقي العوالم الأخرى كالضفة الجنوبية للمتوسط أو عالم الباسيفيك وغيرهما...( الضغوط الامبريالية والحركة الاستعمارية).

المحاضرة الأولى: خصائص القرن التاسع عشر

على الرغم من أن القرن الثامن عشر مثل عصر نهضة فكرية وتقنية وسياسية جعل أوربا تسابق الخطى لتربع منصة الركب الحضاري، فإن القرن التاسع عشر شهد تغير أنماط العيش وطرائق التفكير التي كانت سائدة بعد حقبة الثورة الفرنسية والعهد النابليوني التوسعي، فقد تحرر الفلاحون، وإن اتسمت طرائق العمل ووسائل الانتاج التي شهدتها مختلف القطاعات الانتاجية بالبطء، سواء في مجال النقل والانتقال أو في المجالات الاخرى، إذ ماتزال اكتشافات القرن الثامن عشر تلقي بظلالها على القرن اللاحق[[1]](#footnote-1).

على المستوى البشري، ارتفت أعداد السكان بشكل لافت منذ القرن السابق وبلغت في القرن 19 حوالي 266 مليون نسمة[[2]](#footnote-2) أي أن معدل النمو السكاني ازداد بهذه القارة.

قابل المعدل العالي للمواليد ارتفاع في معدل الوفيات مع هيمنة فئة الاطفال على بنية الهرم الاجتماعي، وإن انخفض معدل الوفيات في بعض المناطق، إلا أن أعداد السكان سرعان ما كانت تتهاوى بفعل الامراض والظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تحول دون تحسن الوضع، أو بسبب نقص في التغذية بفعل تأثير الجفاف أو التقلبات المناخية الفجائية.

كما انتشرت بعض الأمراض كالجدري والتيفوس والبرص وحمى البرداء ( الملاريا) و السل حيث كان يحصد الناس دون رحمة ولا شفقة، فضلا عن الكوليرا( مرض اسهال حاد قادر على أن يفتك بالشخص المصاب)، فضلا عن الطاعون الذي ضرب مختلف البلدان خاصة المانيا[[3]](#footnote-3)، ومنها انتشرت عدواه على إثر الحملات الحربية ووصول السفن الموبوءة إلى سواحل البلدان الأخرى وهي محملة بالجنود والعتاد.

**العناية بالارض**

مع ذلك لم تستطع الثورة الصناعية، التي طالما افتخرت بها أوربا، أن تزيل عنها طابعها الريفي الذي كان سائدا منذ أزمنة موغلة في القدم، لذلك ظل التعايش فيما بين الثروة العقارية وما بين الثورة النقدية قائما حتى في بلدان غرب القارة .فالتربة الغنية بفرنسا تمثل ثلاثة أخماس الثروة الوطنية، مع ذلك بقي الخوف من المجاعة هاجس الانسان الاوربي، وحتى المدن لم تستطع الفكاك من الطابع الريفي وتدفق المبادلات بينهما، لذلك حاول الفلاحون تأمين قوتهم اليومي وحاجاتهم الأساسية بعد سداد ما بذمتهم من رسوم وضرائب.

والمساحات المخصصة للحبوب لم تكن تزد عن الحاجة، لذلك كان الخصاص هو سيد الموقف، فالجهد البشري لم يتمكن بعد من السيطرة على سطح الارض القابل للزراعة. من ثمة كانت الحاجة إلى الاستعانة بتربية الماشية التي تعتمد أساسا على إنتاج الحقول، وبذلك وفرت قطعان الأبقار والماعز والخرفان والخنازير لأصحابها ما قد يحتاجونه من اللبن واللحم...

وقد يعمد الفلاح إلى استثمار الأرض بوسائل بدائية لحرق الاعشاب وكشط التربة وتسميدها طبيعيا، والحصاد يجري بالمنجل والدراسة بالمخابط .

وهذا النظام الاقتصادي القائم على موسم الحبوب يبقى معرضا دوما للتقلبات المناخية الأمر الذي يفسر ضعف انتاجية الارض من حين إلى آخر، ما يجعل سوق الحبوب سريعة الحساسية ويؤثر بالتالي في أسعار هذه المادة الحيوية، مما كان سببا في اندلاع موجات من السخط العارم في صفوف الناس الغاضبين من الذين راحوا يطالبون بمصادرة أملاك المحتكرين، كما عمت أعمال نهب و سرقة للمواد الغذائية خاصة الطحين مختلف المحلات[[4]](#footnote-4).

و أخدت البلاد الفرنسية تشكو من فقدان المنتجات الفلاحية، مما سبب في زيادة أسعار المواد الغذائية فعادت أعمال الشغب والنهب من جديد وجرت أعمال عنف ضد النبلاء وضد جباة الضرائب. ويكفي أن نشير هنا إلى أن ثورة 1848 اندلعت على خلفية قلة المواد الغذائية.

نتائج "الثورة الزراعية": هناك تطورات ملحوظة بدأت طلائعها منذ القرن 18، وكان من جملة ذلك أن نما الانتاج ، بفعل عدة عوامل، منها اعتماد طريقة تعاقب المزروعات العلفية الخاصة بالماشية مع زراعة الحبوب الغذائية وهي القاعدة الاولى في النظام الزراعي المتبع في انجلترا، ويؤكد نورفولك ذلك بالقول: إن الدورة الزراعية الرباعية من شأنها أن تقضي على الأرض البور وأن تزيد الأرض خصبا بمزجها التربة بالنباتات والحشائش والمواد العلفية الغنية بعنصر الأزوت وهي النظام الذي ارتكزت عليه واعتمدته" الثورة الزراعية"[[5]](#footnote-5)., huikliouç)ç\_ç ;

بينما عارض مزارعو فرنسا هذه الطريقة لما تمثله من صدمة تلحق التقاليد المتبعة لدى صغار الفلاحين والمزارعين.كما عولوا على علف الماشية على الحبوب، وأجناس أخرى من الأبقار والخرفان، فضلا عن منتجات زراعية أخرى تجارية لم تكن معروفة في المجال الأوربي، فضلا عن تجفيف الأراضي والمستنقعات في العديد من المناطق وانشاء المزارع مكانها خاصة في هولندا وفرنسا وانجلترا، فضلا عن بناء السدود، وتثبيت كثبان الرمل، وهكذا اتسعت شواطئ أوربا المطلة على الاطلسي. تخصيب التربة العناية بنظام السقي، تأصيل واستنبات عروق جديدة بين الغنم والبقر.

فضلا عن الادوات الفلاحية التي لا يمكن اغفال دورها البارز، قبل اكتشاف البخار، فقد ظهرت المحاريث الانجليزية التي تم تحسينها وتعديلها كما سادت الطرائق الانجليزية في المجال الفلاحي في أغلب البلدان الاوربية، لذلك أمكن تسجيل اختلافات واضحة في المشاهد الزراعية فيما بين الارياف الفرنسية ونظيراتها الانجليزية التي سجلت سبقا باهرا في هذا المضمار. وقد انعكس ذلك على الوضع الاجتماعي للمزارعين فالانجليزي كان أفضل حالا من نظيره في ربوع أوربا، فهو يملك منزلا بورجوازيا يضم غرفة استقبال الضيوف وينعم في ساعات فراغه بالمطالعة والرسم ويبعث زوجته لتشتري ما تشاء...

التطورات التقنية:

تؤلف حقبة القرن 19 م حقبة مدهشة من جهة التطور الذي حققه الانسان في رأي الاقتصادي كينز بفضل مجموعة من الاختراعات والابتكارات العلمية.فقد مثل هذا القرن ذروة ما سجله العالم الليبرالي والرأسمالي تمثل في ازدهار الدول والغنى والرفاهية ومن شعور عام بالطمأنينة التي تحققت للأفراد.

فقد نشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية ولم تعد هناك حواجز أمام أوربا للوصول إلى أبعد مناطق العالم فعبرت البضائع والسلع ورؤوس الأموال والأفكار ونشطت الهجرات الداخلية والخارجية بشكل واسع.

وحري بنا أيضا أن نشير إلى الدور البارز الذي لعبته المواصلات خاصة السكك الحديدية في نمو المبادلات التجارية وتدفق الافراد والسلع عبر المناطق، ناهيك عما أسهمت به في فك العزلة عن المجالات الريفية.الأمر الذي أضفى على العصر صفة " عصر الخط الحديدي".

وعلى الرغم مما حققه القرن التاسع عشر من انجازات باهرة، فإنه مع ذلك شهد أعنف الاحداث والظواهر مأساوية تمثلت في سلسلة من الحروب والثورات كالثورة الفرنسية أو '' الثورة الاطلنتيكية بالنظر إلى شساعة مجال تأثيرها، وما أعقب ذلك من توسعات نابوليونية ومن ثورات مضادة لثورة المبادئ الثلاث. فضلا عن أزمات اقتصادية ( أزمة 1873م).

وهي الأحداث التي أدخلت المجتمعات الاوربية في دوامة العنف والصدام بين القوى المحافظة المتمثلة في الملكية المطلقة وأنصارها وما بين القوى الاصلاحية التي قادتها الطبقة الوسطى وحلفائها. فضلا عن الحروب فيما بين الدول الاوربية على خلفيات النزاعات الحدودية والعرقية أو غيرها.

لقد قاد الجشع الاوربي والنمو الرأسمالي الذي وصل مداه في اطار الظاهرة الامبريالية مختلف بلدانها إلى مباشرة حملة طويلة الامد من حملات الاستغلال والهيمنة على المقدرات الاقتصادية للشعوب الأخرى خارج القارة الأوربية، في تناقض صارخ مع آمال وطموحات ثورة 1789م التي عززت مبادئ الحرية والمساوة والاخاء ومع تعارض بين مع الاعلان الفرنسي لحقوق الانسان و المواطن الصادر عن الجمعية التأسيسية.

1. - روبير شنيرب "تاريخ الحضارات العام، القرن التاسع عشر"،ج6، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م.داغر، اشراف موريس كروزيه، منشورات عويدات، بيروت، ط2 1987، ص 10 [↑](#footnote-ref-1)
2. - نفسه، ص 11 [↑](#footnote-ref-2)
3. - نفسه، ص 12 [↑](#footnote-ref-3)
4. - روبير شنيرب " تاريخ الحضارات العام"، ج6، ص 17 [↑](#footnote-ref-4)
5. - شنيرب، المرجع السابق، ج6 ص 18 [↑](#footnote-ref-5)